واعلمْ أنه قد يَهْجِسُ في نفسِ الإِنسان شيءٌ يظنّ ُ من أجلِه أنه ينبغي أن يكونَ الحكْمُ في المزيّ َة التي تحدثُ بالاستعارةِ أنها تحدثُ في المثَبت دون الإِثبات وذلك أن تقول : إنّا إِذا نظرنا إلى الاستعارةِ وجدناها إنما كانت أبلغَ من أجلِ أنها تدلّ ُ على قوّ َةِ الشّ َبه وأنّه قد تَناهَى إلى أن صارَ المشبّ َه لا يتميّ َزُ عن المشبّ َه بهِ في المعنى الذي من أجلهِ شُبّ ِه به . وإذا كان كذلك كانت المزيّ َةُ الحادثةُ بها حادثةً في الشبَهَ وإِذا كانتْ حادِثَةً في الشَبَه كانت في المثَبت دونَ الإِثبات .

والجوابُ عن ذلك أن يقالَ إن الاستعارةَ - لعمري - تقتضي قوّ َةَ الشبَهَ وكونَه بحيثُ لا يتميّ َز المشبّ َه عن المشبّ َهِ به ولكنْ ليس ذاك سبب المزيةِ وذلك لأنه لو كان ذاك سببَ المزية لكان ينبغي إذا جئتَ به صريحاً فقلتَ : رأيتُ رجلاً مساوياً للأسد في الشجاعةِ وبحيث لولا صورتُه لظننتَ أنك رأيتَ أسداً . وما شاكلَ ذلك من ضروبِ المبالغة أن تجدَ لكلامِك المزيّ َةَ التي تجدها لقولِكَ أسداً . وليس يخفى على عاقل أنّ َ ذلك لا يكونُ .

فإِن قال قائل : إنّ َ المزيةَ من أجل أَنّ َ المساواةَ تعلم في " رأيتُ أسداً " من طريقِ المعنى وفي " رأيتُ رجلاً مساوياً للأسد " من طريق اللفظ قيل قد قلنا فيما تقدم إنه محال أن يتغيّر حالُ المعنى في نفسه بأنْ يكنّ َى عنه بمعنى آخر وأنه لا يُتصوّ َر أن يَتغيّر معنى طولِ القامة بأن يكنّى عنه بطول النِجاد ومعنى كثرةِ القِرى بأنْ يكنّ َى عنه بكثرةِ الرماد . وكما أن ذلك لا يُتصور فكذلك لا يتصوّ َر أن يتغيّ َر معنى مساواةِ الرجلِ الأسدَ في الشجاعة بأن يكنّ َى عن ذلك ويُدلّ َ عليه بأن تجعَله أسداً . فأنتَ الآن إذا نظرتَ إلى قوله - البسيط - : .

(فأسْبَلَتْ لُؤلؤاً من نَرْجِسٍ وسَقَتْ ... وَرْدا وعَضّ َتْ على العُنّ َابِ بالبَرَدِ) .

فرأيته قد أفادَكَ أنّ َ الدمعَ كان لا يَحْرِمُ من شَبَهِ اللؤلؤ والعينَ من شبهِ النرجس شيئاً - فلا تحسبَنّ َ أَنّ َ الحسنَ الذي تراه والأريحيّ َةَ التي تجدها عنده أنه أفادَكَ ذلك فسحبُ . وذاكَ أنك تستطيعُ أن تجيءَ به صريحاً فتقولَ : فأسبلتْ دمعاً كأَنّ َه اللؤلؤ عينِه من عَيْنٍ كأنها